

الفصل الرابع

تَسَامُحٌ فَرِيدٌ

• درجات التسامح وحظ المسلمين منها :

إن التسامح الديني والفكري له درجات ومراتب . فالدرجة الدنيا من التسامح : أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته ، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك ، بحيث إذا أبى حكمت عليه بالموت أو العذاب أو المصادرة أو النفي أو غير ذلك من ألوان العقوبات والاضطهادات التي يقوم بها المتعصبون ضد مخالفيهم في عقائدهم . . فتدع له حرية الاعتقاد ، ولكن لا تمكنه من ممارسة واجباته الدينية التي تفرضها عليه عقيدته ، والامتناع مما يعتقد تحريمه عليه .

والدرجة الوسطى من التسامح : أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ، ثم لا تُضَيِّقْ عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمة . فإذا كان اليهودي يعتقد حرمة العمل يوم السبت ، فلا يجوز أن يُكَلَّفَ بعمل في هذا اليوم ؛ لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه^(١) .

وإذا كان النصراني يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، فلا يجوز أن يُمنع من ذلك في هذا اليوم .

والدرجة التي تعلو هذه في التسامح : ألا تُضَيِّقْ على المخالفين فيما يعتقدون حله في دينهم أو مذهبهم . وإن كنت تعتقد أنه حرام في دينك أو مذهبك .

وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة ، إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح .

(١) في غاية المنتهى وشرحه ، من كتب الحنابلة : « ويحرم إحضار يهودي في سبته ، وتحريمه باق بالنسبة إليه ، فيستثنى شرعاً من عمل في إجارة ، لحديث النسائي والترمذي وصححه : « وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت » اهـ (٦٠٤/٢) .

فقد التزموا كل ما يعتقد غير المسلم أنه حلال في دينه . ووسَّعوا له في ذلك . ولم يُضَيِّقُوا عليه بالمنع والتحريم . وكان يمكنهم أن يُحرِّمُوا ذلك . مراعاة لشريعة الدولة ودينها ولا يَتَّهِمُوا بكثير من التعصب أو قليل ، ذلك لأن الشيء الذي يحلّه دين من الأديان ليس فرضاً على أتباعه أن يفعلوه ، فإذا كان دين المجوسي يبيح له الزواج من أمه أو أخته فيمكنه أن يتزوج من غيرهما ولا حَرَج . وإذا كان دين النصراني يحل له أكل الخنزير ، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير ، وفي لحوم البقر والغنم والطير متسع له .

ومثل ذلك الخمر ، فإذا كانت بعض الكتب المسيحية قد جاءت بإباحتها أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة ، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحي الخمر .

فلو أن الإسلام قال للذميين : دعوا زواج المحارم ، وشرب الخمر ، وأكل الخنازير ، مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين ، لم يكن عليهم في ذلك أي حَرَج ديني ، لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا في دينهم منكراً ، ولا أخلوا بواجب مقدس .

ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك ، ولم يشأ أن يُضَيِّقَ على غير المسلمين في أمر يعتقدون حِلّه ، وقال للمسلمين : اتركوهم وما يدينون .

● روح التسامح عند المسلمين :

على أن هناك شيئاً آخر لا يدخل في نطاق الحقوق التي تنظمها القوانين ، ويلزم بها القضاء ، وتشرف على تنفيذها الحكومات .

ذلك هو «روح السماحة» التي تبدو في حُسن المعاشرة ، ولُطف المعاملة ، ورعاية الجوار ، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان . وهي الأمور التي تحتاج إليها الحياة اليومية ، ولا يغني فيها قانون ولا قضاء . وهذه الروح لا تكاد توجد في غير المجتمع الإسلامي .

تتجلى هذه السماحة في مثل قول القرآن في شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك : ﴿ وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ (لقمان: ١٥).

وفي ترغيب القرآن في البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين : ﴿ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (المتحنة: ٨).
وفي قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِمْ مُسْكِنًا وَتَيْمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان: ٨).

ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين .
وفي قول القرآن يجيب عن شبهة بعض المسلمين في مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين المصرين : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنفُسُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٧٢).

وقد روى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة ومدون مذهبه : أن النبي ﷺ بعث إلى أهل مكة مالا لما قحطوا ليوزع على فقرائهم ^(١) .

هذا على الرغم مما قاساه من أهل مكة من العنت والأذى هو وأصحابه .
وروى أحمد والشيخان ، عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة ، في عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلي أمك » ^(٢) .

وفي قول القرآن يبين أدب المجادلة مع المخالفين : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب ، يهودا كانوا أو نصارى ، فقد كان يزورهم ويكرمهم ، ويحسن إليهم ، ويعود مرضاهم ، ويأخذ منهم ويعطيهم .

(١) شرح السير الكبير (١/١٤٤).

(٢) متفق عليه : رواه البخاري في الجزية (٣١٨٣) ، ومسلم في الزكاة (١٠٠٣) ، كما رواه أحمد (٢٦٩١٥).

ذكر ابن إسحق في السيرة : أن وفد نجران - وهم من النصارى - لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة ، دخلوا عليه مسجده بعد العصر ، فكانت صلاتهم ، فقاموا يصلون في مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوهم » فاستقبلوا المشرق ، فصلُّوا صلاتهم^(١) .

وعقب المجتهد ابن القيم على هذه القصة في « الهدي النبوي » فذكر مما فيها من الفقه : « جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين . . وتمكين أهل الكتاب من صلاتهم بحضرة المسلمين ، وفي مساجدهم أيضاً ، إذا كان ذلك عارضاً ، ولا يُمكنون من اعتياد ذلك »^(٢) .

وروى أبو عبيد في « الأموال » ، عن سعيد بن المسيب : أن رسول الله ﷺ تصدَّق بصدقة على أهل بيت من اليهود ، فهي تُجرى عليهم^(٣) .

وروى البخاري ، عن أنس ، أن النبي ﷺ عاد يهودياً ، وعرض عليه الإسلام فأسلم ، فخرج وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه بي من النار »^(٤) .

وروى البخاري أيضاً : « أن النبي ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله »^(٥) وقد كان في وسعه أن يستقرض من أصحابه ، وما كانوا ليضنوا عليه بشيء ، ولكنه أراد أن يُعلِّم أمته .

وقبل النبي ﷺ الهدايا من غير المسلمين ، واستعان في سلمه وحربه بغير المسلمين ، حيث ضمن ولاءهم له ، ولم يخش منهم شراً ولا كيذاً .

ومرت عليه جنازة فقام ﷺ لها واقفاً ، ف قيل له : إنها جنازة يهودي ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : « أليست نفساً » ؟ !^(٦)

وتتجلى هذه السماحة كذلك في معاملة الصحابة والتابعين لغير المسلمين .

(١) سيرة ابن هشام (٥٧٤/١) .

(٢) زاد المعاد لابن القيم (٥٥٧/٣ ، ٥٥٨) ط الرسالة ، السابعة والعشرون .

(٣) الأموال ص ٦١٣ . (٤) رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٦) .

(٥) متفق عليه : رواه البخاري في الجهاد (٢٩١٦) ، ومسلم في المساقاة (١٦٠٣) ، عن عائشة .

(٦) متفق عليه : رواه البخاري (١٣١٢) ، ومسلم (٩٦١) كلاهما في الجنائز ، عن قيس ابن سعد ، وسهل بن حنيف .

فعمر يأمر بصرف معاش دائم لليهودي وعياله من بيت مال المسلمين ، ثم يقول : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ (التوبة: ٦٠) وهذا من مساكين أهل الكتاب^(١).

ويمر في رحلته إلى الشام يقوم مجذومين من النصارى فيأمر بمساعدة اجتماعية لهم من بيت مال المسلمين^(٢).

وأصيب عمر بضربة رجل من أهل الذمة - أبي لؤلؤة المجوسي - فلم يمنعه ذلك أن يوصي الخليفة من بعده وهو على فراش الموت فيقول : « أوصى الخليفة من بعدي بأهل الذمة خيراً ، أن يوفي بعهدهم ، وأن يقاتل مَنْ ورائهم . وألا يكلفهم فوق طاقتهم »^(٣).

وعبد الله بن عمرو يوصي غلامه أن يعطي جاره اليهودي من الأضحية ، ويكرر الوصية مرة بعد مرة ، حتى دهش الغلام ، وسأله عن سر هذه العناية بجار يهودي؟ قال ابن عمرو : إن النبي ﷺ قال : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »^(٤).

ومات أم الحارث بن أبي ربيعة وهي نصرانية ، فشيّعها أصحاب رسول الله ﷺ^(٥).

وكان بعض أجلاء التابعين يعطون نصيباً من صدقة الفطر لرهبان النصارى ولا يرون في ذلك حرجاً . بل ذهب بعضهم - كعكرمة وابن سيرين والزهري - إلى جواز إعطائهم من الزكاة نفسها^(٦).

(١) الخراج لأبي يوسف ص ٢٦ ، انظر كتابنا « فقه الزكاة » (٢/٧١٥ ، ٨٩٤).

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ١٣١ . (٣) رواه البخاري في الجنائز (١٣٩٢).

(٤) القصة رواها أبو داود في الأدب (٥١٥٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٣) ، وقال حسن غريب ، والمرفوع منه متفق عليه : رواه البخاري في الأدب (٦٠١٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٥).

(٥) رواه عبد الرزاق في أهل الكتاب (٩٩٢٦) ، عن الشعبي .

(٦) المجموع للنووي (٢٢٨/٦).

وروى ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد : « أنه سُئِلَ عن الصدقة فيمن توضع ؟ فقال : في أهل مِلَّتِكُمْ من المسلمين ، وأهل ذمتهم ... » ^(١) .

وذكر القاضي عياض في « ترتيب المدارك » قال : « حدث الدارقطني أن القاضي إسماعيل بن إسحاق ^(٢) دخل عليه الوزير عبدون بن صاعد النصراني وزير الخليفة المعتضد بالله العباسي ، فقام له القاضي ورحب به . فرأى إنكار الشهود لذلك ، فلما خرج الوزير قال القاضي إسماعيل : قد علمتُ إنكاركم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَنُكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (المتحنة: ٨) ، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين المعتضد وهذا من البر » ^(٣) .

وتتجلى هذه السماحة بعد ذلك في مواقف كثير من الأئمة والفقهاء ، في الدفاع عن أهل الذمة ، واعتبار أعراضهم وحرمااتهم كحرمات المسلمين ، وقد ذكرنا مثلاً لذلك موقف الإمام الأوزاعي ، والإمام ابن تيمية .

ونكتفي هنا بكلمات نيرة للفقهاء الأصولي المحقق شهاب الدين القرافي شارحاً بها معنى البر الذي أمر الله به المسلمين في شأنهم . فذكر من ذلك : الرفق بضعيفهم ، وسد خلّة فقيرهم ، وإطعام جائعهم ، وكساء عاريهم ، ولين القول لهم - على سبيل اللطف لهم والرحمة ، لا على سبيل الخوف والذلة - واحتمال إذيتهم في الجوار - مع القدرة على إزالته - لطفاً منا بهم ، لا خوفاً ولا طمعاً ، والدعاء لهم بالهداية ، وأن يجعلوا من أهل السعادة ، ونصيحتهم في جميع أمورهم ، في دينهم ودنياهم ، وحفظ غيبتهم ، إذا تعرّض أحد لأذيتهم ، وصون أموالهم وعيالهم

(١) ذكر ذلك ابن حزم في المحلى (١١٧/٥) .

(٢) من أعلام المالكية ، وقاضي بغداد توفي سنة ٢٨٢ هـ - انظر ترجمته في « ترتيب المدارك » (١٦٦/٣ - ١٨١) ط . دار الحياة ببيروت - تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود .

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٢٧٢/٧) .

وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يعانون على دفع الظلم عنهم ، وإيصالهم إلى جميع حقوقهم ... إلخ^(١) .

● الركائز الفكرية لتسامح المسلمين :

وأساس النظرة المتسامحة التي تسود المسلمين في معاملة مخالفيهم في الدين يرجع إلى الركائز والدعائم ، أو الأفكار والحقائق الناصعة التي غرسها الإسلام في عقول المسلمين وقلوبهم ، وأهمها . هذه الركائز :

إيمان كل مسلم بكرامة الإنسان :

١ - الركيزة الأولى: اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان ، أيًا كان دينه أو جنسه أو لونه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) ، وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية .

ومن الأمثلة العملية ما ذكرناه من قبل ، وهو ما رواه البخاري ومسلم ، عن قيس بن سعد ، وسهل بن حنيف رضي الله عنهما . أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفًا ، فقيل له : يا رسول الله ، إنها جنازة يهودي ؛ فقال : « أليست نفسًا »؟!^(٢) . بلى ، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان ، فما أروع الموقف ، وما أروع التفسير والتعليل !

اختلاف الناس واقع بمشيئة الله :

٢ - الركيزة الثانية : اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى ، الذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع : ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ (يونس: ١٠٨) . ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (هود: ١١٨) . والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب ، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة ، علم الناس ذلك أو جهلوه ، ولهذا لا يفكر المسلم يومًا أن يجبر

(١) الفروق (١٥/٣) .

(٢) سبق تخريجه ص ٤٦ .

الناس ليصيروا كلهم مسلمين ، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

حساب المختلفين إلى الله يوم القيامة :

٣- الركيزة الثالثة : إن المسلم ليس مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم ، فهذا ليس إليه ، وليس موعده هذه الدنيا ، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب ، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحج: ٦٨، ٦٩). وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ تَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١٥).

وبهذا يستريح ضمير المسلم ، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر ، وبين مطالبته ببره والإقسط إليه ، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد .

العدل مأمور به للناس جميعاً :

٤- الركيزة الرابعة : إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ، ويحب القسط ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولو مع المشركين ، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين ، ولو كان الظلم من مسلم لكافر . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة: ٨).

وقال ﷺ : « دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - ليس دونها حجاب »^(١).

(١) رواه أحمد (١٢٥٤٩) وقال مخرجه : إسناده ضعيف ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٢٣٥) : رواه أحمد ، وأبو عبد الله الأسدي لم أعرفه ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح .

ونضيف إلى هذه الركائز الأربع ركائز أخرى ، نقتبسها من كتابنا (فقه
الجهاد) من فصل (إشاعة ثقافة التسامح مع الآخرين) :
اعتبار البشرية كلها أسرة واحدة :

٥- والركيزة الخامسة : أن الإسلام ينظر إلى البشرية كلها - أيا كانت أجناسها
وألوانها ولغاتها وأقاليمها وطبقاتها - بوصفها أسرة واحدة ، تنتمي من جهة
الخلق إلى رب واحد ، ومن جهة النسب إلى أب واحد ، وهذا ما نادى به
القرآن الناس ؛ كل الناس ، فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ
نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء: ١) ، وما أجدر كلمة
﴿ الْأَرْحَامَ ﴾ في هذا السياق أن تفسر بما يشمل الأرحام الإنسانية كلها . كما
قال الشاعر المسلم :

إذا كان أصلي من تراب فكلها بلادي وكل العالمين أقاربي

وقد أعلن رسول الإسلام هذه الحقيقة - وحدة الأسرة البشرية - أمام الجموع
الحاشدة في حجة الوداع ، قائلا : « يا أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ،
كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على
عربي إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ^(١) . وهو تقرير وتأکید لما جاء في
الآية الكريمة من سورة الحجرات ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣) . فالمراد بالذكر والأنثى في الآية : آدم وحواء ، وهما أبوا
البشر . ويستأنس لهذا بما جاء في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن زيد
ابن أرقم وإن كان في إسناده ضعف : أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة : « اللهم
ربنا ورب كل شيء ومليكه ؛ أنا شهيد أنك وحدك لا شريك لك ، اللهم ربنا ورب

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) ، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد:
رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (٥٨٦/٣) ، عن من سمع النبي ﷺ .

كل شيء ومليكه ؛ أنا شهيد أن محمدا عبدك ورسولك ، اللهم ربنا ورب كل شيء ومليكه ؛ أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة»^(١).

وقد أثبت القرآن أن هناك أخوة دينية بين أهل الإيمان أو أهل الدين الواحد ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠) ، ﴿ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ (آل عمران: ١٠٣). كما أثبت أن هناك أخوة قومية ووطنية ، كالتي أثبتها بين الرسل وأقوامهم المكذبين لهم ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (الأعراف: ٦٥) ، ﴿ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (النمل: ٤٥). والأخوة هنا قطعاً ليست دينية ، وإنما هي أخوة قومية ، ولهذا كان يبدأ كل رسول من هؤلاء ندائه بقوله : ﴿ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهِ غَيْرُهُ ﴾ (الأعراف: ٥٩) . ولكن شعبياً عليه السلام حين أرسله الله تعالى إلى أصحاب الأيكة لم يجعله أخا لهم ، ولذا لم يناديهم ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٧٦، ١٧٧) . ولم يقل ما قاله الرسل من قبله ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠٥، ١٠٦) ، ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٢٣، ١٢٤) ، ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الشعراء: ١٤١، ١٤٢) . فلا غرو أن يكون هناك أخوة إنسانية آدمية بحكم الانتساب إلى آدم أبي البشر ، ومن هنا نودوا جميعاً بقوله تعالى : ﴿ يَبْنِيٰٓءَآدَمَ ﴾ في القرآن خمس مرات .

الرحمة بخلق الله جميعاً :

٦- والركيزة السادسة من عناصر هذه الثقافة : إقرار هذا المبدأ وإشاعته في الناس ، وهو وجوب الرحمة بخلق الله جميعاً ، مسلمهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، إنسانهم وحيوانهم ، تخلقا بأخلاق الله تعالى الذي سمى نفسه ﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ و ﴿ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ومن (وسعت رحمته كل شيء) ، ومن

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٢٩٣) ، وقال محققوه : إسناده ضعيف ، وأبو داود في الصلاة (١٥٠٨) ، والبيهقي في الشعب (٤٣٣/١) ، عن زيد بن أرقم .

سبقت رحمته غضبه ، وهو يرزق من آمن ومن كفر ، وينزل مطره ، ويطلع شمسهم عليهم جميعا ، ولا يحجز عنهم فضله وإحسانه .

وقد أعلن في كتابه أنه أرسل رسوله محمدا ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ للعالم كله ، وليس للمسلمين وحدهم ، بل جاء بصيغة الحصر فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ، فهذه الرسالة رحمة عامة للبشر ، ولكل المخلوقات ، حتى الحيوان والطيور والماء والأرض والهواء ، أو ما يسمى (البيئة) .

ووصف الرسول ﷺ نفسه ، فقال : « إنما أنا رحمة مهداة »^(١) ، وقال : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء »^(٢) ، وقال : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »^(٣) .

كما جعل القرآن (القسوة) من شر الرذائل التي لا يوصف بها المؤمنون ، بل ذم بني إسرائيل لقسوتهم ، فقال : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ (البقرة: ٧٤) ، وقال في مقام آخر : ﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِّثْقَلَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ (المائدة: ١٣) ، فجعل القسوة عقوبة إلهية لهم على تجاوزهم ونقضهم العهود والمواثيق بينهم وبين الله تعالى ، أو بينهم وبين العباد .

وأما وصف الصحابة ، بقوله : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩) ، فالكفار في هذا المقام هم المعتدون المحاربون للمسلمين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويفتنون المؤمنين في دينهم ، بالاضطهاد والتعذيب ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٤) .

(١) رواه الدارمي في المقدمة (١٥) ، والحاكم في الإيمان (٣٥/١) وقال: حديث صحيح على شرطهما ، فقد احتجا جميعا بمالك بن سعيد ، والتفرد من الثقات مقبول ، ووافقه الذهبي ، والطبراني في الأوسط (٢٩٨١) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٠) عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد (٦٤٩٤) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٤١) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٤) ، وقال حديث حسن صحيح ، والبيهقي في الشعب (١١٠٤٨) وصححه الألباني في الصحيحة (٩٢٥) عن ابن عمر .

(٣) رواه أحمد (٨٠٠١) وأبو داود في الأدب (٤٩٤٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٣) ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦١) عن أبي هريرة .

ادفع بالتّي هي أحسن :

٧- والركيزة السابعة من عناصر هذه الثقافة : أن الإسلام يربي أبناءه تربية خلقية معروفة ، قوامها أن يكون المسلم ينبوع خير وسلام لكل من حوله ، وما حوله . فإسلامه مصدر سلام للناس ، فلا ينالهم أذى من لسانه أو يده ، وإيمانه مصدر أمان لهم ، فلا يخافون على دمائهم أو أموالهم ، كما جاء في الحديث : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم »^(١) . بل المسلم سلام للبيئة من حوله .

بل ربّي الإسلام المسلم أن يدفع سيئة من أساء إليه بالحسنة ، وإن جاز له أن يدفع السيئة بمثلها ، وهو مقام العدل ، رغبه بأن يدفعها بالحسنة ، أو بالتّي هي أحسن ، وهذا مقام الإحسان والفضل ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٠) ، وقال : ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ﴾ (المؤمنون: ٩٦) ، وقال : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت: ٣٤، ٣٥)

العداوات بين الناس ليست أمرا دائما :

٨- والركيزة الثامنة ، التي قررها الإسلام ، وعلمها للمسلمين ، وغرسها في عقولهم وضمايرهم : أن الناس قد يعادي بعضهم بعضا ، لأسباب مختلفة ، دينية أو دنيوية ، ولكن هذه العداوات - على حق كانت أو على باطل - لا تدوم أبد الدهر ، فالقلوب تتغير ، والأحوال تتبدل ، وعدو الأمس قد يصبح صديق اليوم ، وبعيد اليوم قد يصبح قريب الغد ، وهذه قاعدة مهمة في علاقات الناس بعضهم ببعض ، فلا ينبغي أن يسرفوا في العداوة ، حتى لا يبقوا للصالح موزعا ، وهذا

(١) رواه أحمد (٨٩٣١) وقال مخرجه : إسناده صحيح على شرط الشيخين ، والنسائي في الكبرى في الإيمان (١١٧٢٦) عن أبي هريرة .

ما نبه إليه القرآن بوضوح بعد نهيهِ عن موالاته أعداء الله وأعداء المسلمين في أول سورة الممتحنة، وضرب مثلاً بصلافة إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: ﴿ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ (الممتحنة: ٤) . بعد هذا قال تعالى: ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الممتحنة: ٧) .

فهذا الرجاء من الله سبحانه الذي ذكره بكلمة (عسى) يملأ القلوب أملاً بتغيير القلوب من العداوة والبغضاء إلى المودة والمحبة ، والله قدير على تغيير القلوب ، فهو الذي يقلبها كيف يشاء ، والله غفور لما مضى من الأحقاد والضغائن ، رحيم بعباده الذين تصفو قلوبهم ، ولا عجب أن اشتهر بين المسلمين قولهم : وابغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما^(١).

الدعوة إلى الحوار بالتي هي أحسن :

٩- والركيزة التاسعة للتسامح الإسلامي هي: الدعوة إلى حوار المخالفين بالحسنى، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل: ١٢٥)، فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة - غالباً -

(١) رواه الترمذي في البر والصلة (١٩٩٧) عن أبي هريرة ، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه ، وقد روي هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا ورواه الحسن بن أبي جعفر ، وهو حديث ضعيف أيضاً بإسناده له عن النبي ﷺ ، والصحيح عن علي موقوف ، ورواه ابن أبي شيبه في مصنفه (٣٧٠٢٦) وقال محققه (محمد عوامة) : والواقع أن إسناد المرفوع رجاله ثقات من رجال مسلم ، كما في تخريج الإحياء (١٨٥/٢) ، لكن أعلّه النقاد وصححو وقفه ، ورواه البخاري في الأدب المفرد عن علي مرفوعاً (١٣٢١) ، والبيهقي في الشعب (٦٥٩٣) . وذكره الألباني في صحيح الأدب المفرد (٩٩٢) ، وفي صحيح الترمذي (١٦٢٥) .

مع الموافقين ، والجدال بالتي هي أحسن - غالبا - مع المخالفين . فالمسلمون
مأمورون من ربهم أن يجادلوا مخالفهم ، بالطريقة التي هي أحسن الطرق ،
أمثلها وأقرب إلى القبول من المخالف .

والجدال بالتي هي أحسن ، هو : الحوار الذي ندعو إليه مع المخالفين لنا ، وهو
الذي لا يسعى إلى إيغار الصدور ، أو المباعدة بين القلوب ، وإثارة ما يشعل الفتنة ،
أو يورث الضغينة ، بل يعمل على تقريب القلوب بعضها من بعض ، كما قال
تعالى في مجادلة أهل الكتاب : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا
وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٤٦) . فالآية تركز على الجوامع
المشتركة التي يؤمن بها الفريقان ، لا على نقاط التمايز والاختلاف ، وهذا من
أصول الحوار بالحسنى . وبهذا يرى الإسلام ضرورة الحوار بين المتخالفين ،
ولا يرى حتمية الصراع بينهم ، كما ادعى الكاتب الاستراتيجي الأمريكي (صمويل
هانتجتون) .

وقد بدأ الحوار الإسلامي المسيحي منذ حوالي أربعين سنة ، ولم يزل مستمرا
إلى عهد قريب ، وقد شاركت في أكثر من مؤتمر لهذا الحوار ، منها : مؤتمر القمة
الإسلامية المسيحية في روما (أكتوبر ٢٠٠١) التي دعت إليها جمعية (سانت جديو)
الإيطالية وقد شارك فيه كبار الكرادلة ، وكبار علماء المسلمين . والقمة الإسلامية
المسيحية في برشلونة (٢٠٠٣م) ومؤتمر الحوار الإسلامي المسيحي مع الكنائس
الشرقية خاصة ، في القاهرة . ومؤتمرات الحوار الإسلامي المسيحي بالدوحة . .
ولكن بعد كلمات بابا الفاتيكان (بندكت السادس عشر) في محاضراته بألمانيا
(١٢ سبتمبر ٢٠٠٦) التي أساء إلى الإسلام ونبه وعقيدته وشريعته وحضارته :
جمد الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين الحوار بيننا وبين الفاتيكان ؛ حتى يظهر
موقف آخر يمحو الأذى السابق .

* * *